دور قوافل طرق الحج في بناء علاقات التواصل والاتصال دارفور أنموذجاً""

د. أبكر عبدالبنات آدم إبراهيم

مستخلص:

تناولت الدراسة دور التواصل والاتصال كأحد الوسائل والأساليب التي استخدمتها قوافل الحج في دارفور عندما كانوا يقصدون الأراضي المقدسة. وقد ساعدت الكثير من العوامل في نشر الدعوة الإسلامية، وفي تغيير مسار الحياة الدينية والثقافية والفكرية، والتخلص من العادات والتقاليد المحلية. هدفت الدراسة إلى معرفة أهمية التواصل والاتصال في بناء الشخصية الدارفورية، وفي بناء العلاقات الدولية بين الدول الإفريقية على وجه العموم ودارفور على وجه الخصوص، وفي الكشف عن الأثر النفسي الذي تركه التواصل في نفوس الحجيج. وقد خلصت الدراسة إلى أنَّ التواصل والاتصال بين قوافل الحجيج كان بمثابة الثورة المعرفية في نقل الأخبار وتبادل الأفكار والمعلومات. استخدم الباحث المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي لمعرفة عناصر ومستويات الاتصال التي استخدمها الحجيج في رحلتهم الطويلة.

Abstract:

This study tackles the role of connection and communication as one of the means utilized by pilgrim- caravans in Darfur on their way to the holy places. These caravans helped in the spread of the Islamic message (dawah) and in changing the line of religious, cultural and intellectual life in Africa and altering the local customs and traditions. The study has aimed to know the importance of connection and communication in building the African identity. It also helped in establishing the international relations between African countries specially in Darfur, and in deciphering the psychological effect of connections embedded in the spirits of the pilgrims.The present research has come up with a conclusion that the connection and communication between the pilgrim – caravans was similar to the epistemological revolution in conveying news and transmitting thoughts and information. It is noteworthy that the descriptive, historical and analytical approach was adopted to acquaint with the elements and levels of communication that were used by the pilgrims in their long journeys.

مقدمة

ظهرت الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية في بداية القرن السابع الميلادي عندما كانت البشرية في حاجة ماسة إلى رسالة السماء لتصحيح تلك الانحرفات التي سادت العقائد، ولم تكن القارة الإفريقية بمعزل عن تلك الحاجة، فدخل الإسلام إلى إفريقيا لتغيير مسار الحياة العقائدية والفكرية والثقافية بعيدة عن العادات والتقاليد، فحلت الثقافة الإسلامية محل الأديان التقليدية، بدءاً بالهجرة إلى الحبشة، ثم تلتها هجرات متتالية إلى بقية أنحاء القارة ومنها دارفور. وعندما أصبحت الدعوة واقعاً ملموساً في أنحاء دارفور، بدأ أهالي دارفور يفكرون في أداء فريضة الحج لتحقيق معاني الإيمان بالله، وتكوين روابط الأخوة الإسلامية من خلال المؤتمر الجامع الذي يجمع كل المسلمين من كل حدب وصوب، وهنا بدأت بما يسمى بقوافل الحج وكل له قنواته في التواصل والاتصال.

أهمية الدراسة: رغم سياسة العزلة التي انتهجها المستعمر في ترسيم الحدود الوهمية للحد من عملية التنقل والهجرة بين بلدان القارة الإفريقية، إلا أن قوافل الحج لم يحيدوا من عملية التواصل والاتصال خلال رحلتهم الشاقة من وإلى ديارهم. وما أن أصبح العالم عبارة عن قرية كونية فإن عملية التواصل والاتصال باتت من أسهل الأمور، غير أن ردّ الفعل في نشر الثقافة الإسلامية بات قليل النتائج للتحديات الماثلة أمام المسلمين اليوم.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى وضع صياغات علمية موضوعية لمعرفة غايات التواصل والاتصال، ودوره في صياغة الشخصية الدارفورية، وإلقاء الضوء على العناصر المستخدمة في عملية التواصل والاتصال من خلال رحلات الحج، والكشف عن أثر التواصل والاتصال في بناء العلاقة بين سلطنة الفور وبقية السلطنات الإسلامية الأخرى. فإذا كان عامة المسلمين يشتاقون لأداء فريضة الحج والوصول إلى الأماكن المقدسة، فإن الشخصية الدارفورية أشد شوقاً ورغبة، ويعوذ ذلك إلى معرفتهم بأهمية هذه الفريضة، وما يحصل عليه المسلم من المنافع والفوائد الدنيوية والأخروية من أداء هذه الشعيرة العظيمة، وما يجدونه من لذة العبادة لله عزّ وجلّ والخضوع له، وتوحيده، والاستجابة لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

مشكلة الدراسة: تكمن مشكلة الدراسة في قلة المصادر التي تناولت طرق الحجيج في دارفور، وإهمال جانب الأثر النفسي الذي تتركه قوافل الحج عند مرورهم بالمدن والقرى والبوادي وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة.

منهجية الدراسة: استخدم الباحث المنهج الوصفي والتاريخي وأحياناً المقارن للكشف عن دور التواصل والاتصال في تشكيل وجدان الشخصية الدارفورية.

التكوين الجيموغرافي لدارفور:

يقع إقليم دارفور في أقصى الجزء الغربي من السودان بين خطي عرض ١٦,١٠ شمالاً وخطي طول ٢٧,٣٠,٢٢ شرقاً(عبدالقادر١٩٩٨م:١١). وتمتد أرضه في شكل مستطيل يبدأ من الجنوب وينتهي إلى الشمال(قمر الدين،٢٠٠٥م:١١). وتعتبر سلطنة الفور واحدة من أهم وأقدم الممالك

الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، هذا بالإضافة إلى ممالك سنار، وكردفان، ووداي، وباجرمي والبرنو والكانم والهوسا ثم ممالك غانا ومالي(التونسي،2000م:٥).

تتنوع الظروف المناخية والتضارسية في دارفور نتيجة لوحدة المناخ والنبات والتضاريس، لذا كانت الروابط التجارية والثقافية والدينية بينها وبين الممالك الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا قوية ومتينة منذ عهد قديم(الحسن،١٩٩٥م:٢٠). تحده من الجنوب الغربي إفريقيا الوسطى، ومن الشمال الشرقي الإقليم الشمالي، ومن الشمال ليبيا(أرباب،1998م:٢١). أما من جهة الشرق فتتأرجح حدود دارفور بين النيل مرة وكردفان مرة أخرى، وهذا يرجع إلي قوة ونفوذ سلاطين الفور. تبلغ مساحة إقليم دارفور حوالي ٥١٠.٨٨٨كيلومتر مربع أي تساوى خمس مساحة جمهورية السودان، وعدد سكانها ما يعادل ٢٥% من جملة سكان السودان.

إن سكان دارفور هم خليط من الأعراق والأجناس، حيث ساهمت الهجرات العربية والإفريقية في تكوين هوية متجانسة ومتعايشة، أدت إلى انتشار الإسلام، وتعزيز بناء العلاقات الاجتماعية بين الأعراق المتنوعة.

الإسلام في دارفور:

دخل الإسلام القارة السمراء منذ فجر مبعثه عندما كانت البشرية في أمس الحاجة إلى رسالة السماء، ورغم بُعد بعض أقطار القارة عن الحركة الدينية الجديدة، إلا أنَّ هجرة العرب المسلمين قد لعبت دوراً متعاظماً في معرفة الإسلام، فكانت هجرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى الحبشة بإيعاز من الرسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل أول مرحلة من مراحل نشر الدعوة الإسلامية، حين قال:" لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"(الجزيري،١٤٠٤هـ:٦٧).

إن الإسلام في دارفور يمثل تياراً دينياً وثقافياً يتقدم على الدوام على حساب الأعراف والتقاليد المحلية. وقد دخل أهل دارفور الإسلام دون أدنى مقاومة، وببساطة يصعب وصفها، وبالتالي أضحى حملة الألقاب وحفظة التقاليد منهم يقبلون أثره دون اعتراض(أبوسليم،١٩٨٦م:١٧). ولقد لعب العلماء والفقراء دوراً بارزاً في بلاط السلطنة وفي المجتمع الواسع وظلوا يركزون نفوذهم ونفوذ الإسلام على وجه مضطرد. لذا كان المجتمع في دارفور يأخذ الإسلام والعرف المحلي معاً لأن الأعراف لا تخالف الصواب في كثير من الأحيان. وبالإسلام الذي قبله الفور طواعيةً ودون إكراه تعلم الجميع اللغة العربية لغةً القرآن الكريم والسنة النبوية لدواعي التبليغ بالدعوة الإسلامية للمجتمع الدارفوري، خاصة عندما توافد إلى دارفور عدد من العلماء يقصدون الأراضي المقدسة، فاكتمل عنصرا التمازج المجتمعي المتمثلة في الاستيعاب والاندماج(عثمان، بدون تاريخ:٢٣).

أيضاً ذكرت بعض الروايات التاريخية عن أنّ العلماء الذين وفدوا إلى دارفور كان ما بين بداية وصول الإسلام في بلاط سلاطين الفور إلى عهد السلطان سليمان الثاني الذي يعود إليه الفضل في فتح أبواب دارفور للعلماء المسلمين. ويبدو أن ظروف الاستقرار الأمني كانت دوماً تلعب دوراً مهماً في ترسيخ تعاليم الإسلام، لأن التحول للإسلام كان يتم بالتأثير والقدوة الحسنة في السلوك والقيم، وبالتعاليم

والامتزاج الشامل في المجتمع، من خلال تجنب خلق جزر سكانية أو ثقافية أو اجتماعية فالناس سواسية في تلقي المعرفة والعلوم(عثمان،٢٠٠٦م:٣٣). وفي هذا يقول أوفاهي:" إن تأثير الإسلام على السلطنة كان عن طريق تبني السلاطين الإسلام وجعله دين الدولة وحماستهم للدين الإسلامي كانت قوية مما جعلهم يعتبرون حماية المسلمين وتطبيق الأحكام الشرعية من أوجب أعمالهم بالرغم أن تلك فترة كانت المعارف الإسلامية فيها ضعيفة، وشجعوا على معرفة القراءة والكتابة المتزايدة في الإدارة. وصار الإسلام القوة الدينية والثقافية المهيمنة داخل الدولة ولم تكن عملية معقدة حيث تعايشت الأبعاد الفوراوية والإسلامية وضخم السلاطين أنفسهم بالألقاب الإسلامية" (أوفاهي،٢٠٠٦م:١٤١).

لقد استفادت دارفور من موقعها الاستراتيجي، حيث أنها أصبحت تمثل نقطة ارتكاز لكثير من المجموعات الوافدة كالدعاة والتجار والرعاة كل حسب مهنته، وعندما جاء أصبحت حلقة من حلقات التواصل بين الممالك الإسلامية المنتشرة في ربوع السودان وخارجه، فكانت معبراً مهماً لنقل الحجيج من الشمال إلى الشرق حيث الأراضي المقدسة.

ومن هنا كانت قوافل الحج في دارفور تمثل أحد أركان العملية الاتصالية عندما يقصدون الأراضي المقدسة، فمنهم من يواصل المسيرة لأداء تلك الفريضة الربانية، ومنهم من يبقى في تلك الديار خدمة للإسلام والمسلمين، حيث يرتبطون بنسق من العلاقات الاجتماعية والثقافية المنحدرة من الأصول العربية والإفريقية.

أهم طرق تواصل قوافل الحجيج في دارفور

للطرق أهمية خاصة في وصل أجزاء البلاد داخلياً وربطها خارجياً بالممالك والأقطار المجاورة، وقد لعبت الطرق أدواراً هامة في ربط دارفور بدول العالم، وأهمها بالأراضي المقدسة التي هي قبلة جميع المسلمين دينياً وتجارياً واقتصادياً، وثقافياً، وفكرياً واجتماعياً على مرّ الأزمان، وخلال تاريخها الطويل(قمرالدين،٢٠٠٥م:١٢). ومن أهم الطرق:

١. درب الأربعين الشهير الذي يربط مصر بدارفور ويقطعه المسافر من أسيوط في صعيد مصر إلي كوبى في دارفور مستغرقاً أربعين يوماً. ويسير هذا الدرب من أسيوط في صعيد مصر ماراً بواحتي الخارجة وسليمة عابراً الصحراء. وهو درب قديم جداً استخدمته قوافل الحجيج والتجار والرحالة والعلماء إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج. وقد ازدادت أهمية هذا الطريق في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد عندما تقلد الأمور بالسلطنة، واتخذ من الفاشر عاصمة له، فاشتهر بالعلم والمعرفة، وحينها زادت سطوته في الداخل والخارج. فأصبح الإقليم قبلة للوافدين الجدد، فعملوا على نشر تعاليم الدين الإسلامي، والعمل في التجارة.

٢. يبدأ هذا الطريق من أقاصي غرب إفريقيا من بلاد التكرور ماراً بأرض مالي فبلاد الهوسا وبرنو ووداي حتى كبكابية في قلب وسط دارفور ومنه إلى كردفان، فسنار ثم إلى الحجاز، وهو من أهم الطرق التي سلكها الحجاج من ممالك غرب إفريقيا إلى مكة والمدينة. ولا شك أن هذا الطريق الغربي قد لعب دوراً كبيراً في ربط سلطنة الفور ببقية سلطنات غرب إفريقيا، كما ساعدت في بناء علاقات التواصل والاتصال بينهما.

٣. يبدأ هذا الطريق من تونس إلي ليبيا ثم وداي إلى دارفور، وقد استغلت قوافل الحجيج الذين يأتون من شمال غرب إفريقيا هذا الطريق الهام إلى الأراضي المقدسة(عثمان،٢٠٠٦م:١٢).

مفهوم التواصل والاتصال:

لغة: التواصل والاتصال Communication في اللغة بمعنى الاقتران والإبلاغ والإعلام والاجتماع وغيرها (ابن منظور،١٣٠٠هـ:١٣٤). فالتواصل في اللغة العربية الترابط والالتئام والجمع والإبلاغ والانتهاء والإعلام.

أما اصطلاحاً: فهو نقل معلومة ما من شخص إلى آخر، وإخباره بها واطلاعه عليها(عبد الكريم،٢٠٠١م:٣٤). وعرّفه البعض بأنه نقل معلوماتInformation من مرسل إلى متلق بواسطة قناة محددة، بحيث يستطيع المتلقي فهم الرسالة وفك رموزها والاستفادة منها، مع ضرورة وضع الاعتبار للتفاعلات التي تحدث أثناء عملية التواصل(الجاز،٢٠٠٠م:٤). إذن التواصل هو عبارة عن تقنية إجرائية لفهم التفاعلات البشرية عندما يستخدم الإنسان خبراته الإعلامية، وكل طرائق الاتصال والإرسال، بغية تكوين علاقة مشتركة تجمع كافة أطياف المجتمع. بل هو بمثابة المعين والوعاء الذي تستقي منه باقي العلوم والفنون والوسائل الأخرى من أجل تحقيق الأهداف والغايات، أو تسهيل عملية تبادل المعارف وتنمية العلاقات على كافة المستويات المعرفية والوجدانية والحسية والحركية.

لذلك يمكن القول إنَّ التواصل والاتصال من المجالات التى أصبحت تشكل أهمية قصوى في حياة الإنسان عبر اللغات المنطوقة، والإيماءات والحركات والطقوس والعادات والرموز والصور، وغيرها. وهو بذلك يشكل اليوم فلسفة العلوم الحديثة في معناه العام خصوصاً من خلال الثورة التكنولوجية التي أحدثتها المعارف العلمية، فلإنسان يعشق الاتصال مع نفسه ومع الآخرين لإشباع الحاجات النفسية.

يقوم الاسلام بطبيعته على عمليات التواصل والتخاطب كغيره من الديانات الإلهية الأخرى، فهو رسالة سماوية لكافة الناس، لذلك استخدم الحجاج عناصر مختلفة للتواصل والاتصال منها:

١- رسائل اتصالية Communication Massage: وتعني مجموعة المعاني التي يرسلها المرسل للمستقبل لإبلاغ معلومة لفظاً أو كتابة أو رمزاً.
٢- وسيلة Media: وهي الجهة التي تحمل الرسالة لإيصالها للمستقبل.
٣- قنواتChannels : وهي بمثابة الربط الذي ينقل الرسالة إلى المستقبل.
٤- مصدر الرسالة Massage source : وهو مرسل الرسالة.
٥- الهدف Destination: خلق علاقات إنسانية اجتماعية ترابطية.

وعندما يريد مرسل الرسالة أن يتواصل مع المستقبلين لابد من استحضار بعض المفاهيم الأساسية في تبادل الرسائل، والتي منها:

- زمنية التواصلTime of Contaction : للحصول على تواصل يمكن أن تفضي إلى نتائج أكثر إيجابية أن يختار المتحاورين الوقت المناسب.
- تحديد المكان Place : إن اختيار المدى الملائم لبيئة الحوار يساعد إيجاباً على تفعيل عملية التواصل، لأن شعور الفرد بالارتياح دليل على قبول الآخر واحترامه.

- لغة التواصل Language of Contaction : يعتبر فن اختيار اللغة من العمليات الملحة لكل فرد يريد أن يكونَّ علاقة مع الآخرين على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم، بل من المسائل الضرورية لنجاح عملية الاتصال بشقيه الفردي والجماعي، لذلك يرى بعض علماء الاتصال أن من أهم أسباب نجاح عملية التواصل هو اختيار مرسل الرسالة للكلمات التي تسهم في سياق المعنى المفهوم، من خلال إيماءاته ومفرداته، ونبرة صوته. فالكلمة هي مادة اللغة التي قد تكون في متناول كل إنسان وباختلاف الصياغة الفنية وطريقة النطق تختلف قيم اللغة عند المستمع. وعلى ذات السياق تختلف المهارات من حيث الاهتمام بمحتوى ومضمون الرسالة مع مراعاة الفروق الفردية والعوامل التي تساعد في إحداث التأثير والتغيير.
- السياق Formula : وتعني القدرة على طرح الموضوع مجال التواصل من جميع ميادينه المختلفة.

مستويات التواصل والاتصال:

تتعدد مستوى التواصل والاتصال من الإنساني والبيولوجي والإعلامي والسيكولوجي والاجتماعي، إلى السيميوطبقي والفلسفي والاقتصادي... وقد تختلف مضامين هذه المستويات من وظيفة لأخرى. فكثير من الباحثين يعتبرون الاتصال وظيفة تعليمية، غير أنَّ هنالك من يرى على أنها وظيفة لبناء العلاقات الاجتماعية والثقافية والفكرية"(رشتي،١٩٩٧م:٢١). وقد يرتبط التواصل بعدة علوم ومعارف يمكن حصرها في علم التدبير والتسيير، والعلاقات العامة، وعلم التسويق Marketing، وعلوم الاتصال، والفلسفة... وغيرها(بدر،١٩٧٤م:٣٢). ويرى بعض خبراء الإعلام أنَّ مستويات التواصل والاتصال ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

تواصل داخلي: هو تواصل داخلي يتم بين الفرد ونفسه، وهنا يتفاعل الفرد مع ذاته عندما يريد أن يحقق شيئاً ما من خلال ممارسة عملياته الحياتية المختلفة.

تواصل خارجي: هو تواصل يتم بين الفرد والأشخاص المحيطين به، وهنا يحدث التفاعل بينه والآخرين من خلال الأحداث اليومية التي تحدث نتيجة الاتصال الشخصي أو الجماعي.

تواصل اجتماعي: هو تواصل الفرد بالأصدقاء والعائلة وزملاء العمل والجيران. ويكون هذا التواصل هدفه المحافظة علي العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والأشخاص أو الجماعات، ويشاركهم في ذلك الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع. فهذه العلاقات بعضها سطحي أو البعض الأخر علاقات وطيدة وحميمة. وهنالك من يرى أنَّ لمستويات التواصل عدة نماذج تكمن في الآتي:

١. النموذج اللفظي أو اللساني: يذهب مجموعة من اللسانيين إلى أن اللغة وسيلة من وسائل التواصل بغض النظر عن الرموز التي تستخدم في فك الإشارات المرسلة. فاللغة نسق من العلامات والإشارات هدفها التواصل خاصة عند اتحاد الدال مع المدلول بنيويا أو تقاطع الصورة السمعية مع المفهوم الذهني. فهذا المضمار اللغوي الاتصالى ناتج لعلاقات دينية واجتماعية ونفسية وسياسية وأخلاقية، وهذا يعني أن للغة دلالات وأنماطاً تحقق معاني الاتصال الذاتي والجمعي، والتي غالباً ما تتم بين الفرد والآخرين؛ لأن إدراك الآخر يساعد الفرد على إدراك ذاته. فالتواصل بين الجماعات الاجتماعية يسعى إلى تنمية روح المشاركة بين قوافل الحجيج، وتفعيل مبدإ التعاون والتعارف بينهما. بل هو بمثابة مقاربة تحليلية أو

منهجية إجرائية تسعى لاستقراء العلاقات التفاعلية أو قراءة النصوص والخطابات أو فهم الروابط الذهنية والوجدانية والحركية أو تفسير أنسقتها التبادلية، لاستحضار مجموعة من المفاهيم النظرية والتطبيقية باعتبارها أحدى عملية التبادل والتفاعل والتأثير.

٢. النموذج السلوكي: وضع هذا النموذج المحلل النفسي الأمريكي لازويلLasswell D. Harold سنة١٩٤٨م، ويتضمن هذا النموذج مايلي: من؟ (المرسل)، ماذا؟ (الرسالة)، وبأية وسيلة؟(القناة) ولمن؟(المتلقي)، ومدى التأثير؟(التغذية الراجعة)(بدر،١٩٧٤م:٣٤). ويرتكز هذا النموذج على خمسة عناصر، وهي:المرسل و الرسالة والقناة والمتلقي والأثر. ويقوم النموذج على ثنائية المثير والاستجابة. فالحجاج كانوا يستخدمون هذا النموذج في عملية التواصل والاتصال لمعرفة تأثير الرسائل المرسلة على الشعوب الذين يمرون بديارهم لأجل تغيير القيم السلوكية والاخلاقية.

٣. النموذج الاجتماعي: يعتمد هذا النموذج على فهم طريقة انتماء الأفراد والجماعات. فالمرسل هو المعتمد، والمستقبل هو الذي يشكل الجماعات الاجتماعية مثل: العائلات والتجمعات والجماعات... فهؤلاء يتأثرون ويفكرون ويحكمون ويرون الأشياء بمنظار الجماعات التي ينتمون إليها، وهم بدورهم يشكلون جزء من حضن السياق الاجتماعي، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(الحجرات:١٣).

٤. النموذج الإعلامي الجماهيري: يقوم هذا النموذج الإعلامي على توظيف التقنيات الإعلامية الحديثة لإثراء العميلة الاتصالية، ومن مرتكزات هذا النموذج خلق العلاقة الترابطية بين الجمهور المتلقي ومرسل الرسالة. فالقوافل الدعوية في الحج تعمل بروح الانسجام لخلق بيئة تناسب طبيعة الوافدين الذين يقصدون الأراضي المقدسة. فالاتصال بالجماهير كان يتم بصورة عفوية، ولم تكن هنالك ترتيب مسبق، فهولاء يتناقلون الأخبار عن طريق المشايخ والسلاطين ورموز المنطقة بصورة عفوية. ومن أقدار المولى عزّ وجلّ أن يختلف الناس في ألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم، للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات فكان الاختلاف آية من آياته، لأنَّ اختلاف الألسن والألوان، والطبائع، والمواهب، لا يقتضي النزاع والشقاق، قال تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}(الروم:٢٢).

أهداف التواصل والاتصال: تهدف عملية التواصل والاتصال بين قوافل الحجيج في دارفور لتحقيق الأهداف التالية:

١. تسهيل تبادل المعارف والعلوم بين الأفراد والجماعات.

٢. تبادل المنافع بين المؤسسات الخدمية والإنتاجية.

٣. القدرة على بناء العلاقات الاجتماعية والثقافية والفكرية بين الشعب السوداني عامة، ودارفور على وجه الخصوص.

٤. المساعدة في تنمية الموارد البشرية.

٥. خلق علاقة بين المرجعيات الدينية المنتشرة في أنحاء السودان المختلفة والقارة السمراء.

٦. ربط المؤسسات الدينية المحلية والإقليمية بالعالم الخارجي.

٧. تذليل الكثير من الصعوبات التي تعترض سير المنظمات الدعوية.

وفي ذات السياق يشير مفهوم الاتصال Communication إلى العملية أو الطريقة التي بموجبها تنتقل الأفكار والمعلومات والخبرات بين الناس، وتأخذ هذه العملية سياقات وآفاقاً متعددة كالإشارة والرموز الصوتية، وبعض الطقوس الدينية والاجتماعية. فالاتصال يشكل محوراً أساسيا وحيوياً في تطور المجتمعات البشرية، بوصفه يحمل معظم عمليات التفاعل الإنساني والتناقل المعرفي والحسي بين الأفراد والجماعات، فالإنسان كائن اجتماعي فيه جانب النزوع الاتصالي بذاته، وببني جلدته في حله وترحاله، وتأخذ هذه النزعة صفة ملازمة طيلة ما يهبه الله تعالى من رزق الحياة. وقد يرتبط التفاعل والتكيف الإنساني بالإطار الدلالي أو اللغة المشتركة والتي تعد إحدى مقومات نجاح ذلك التفاعل، ومن ثم نجاح عملية الاتصال الذي هو أساس التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات. فالعمليات المعرفية هي الأخرى تشكل مبدأ الإحساس والإدراك في التفكير، وما ينتج عن ذلك من متغيرات وتعديلات في السلوك والاتجاهات، والذي غالباً ما يقترن بسمات التأثير والتشويق التي تتضمن الجمال والفاعلية والوضوح بقصد المشاركة في كل من العمليات التعليمية والمعرفية، أو في التعبير عن معاني التعايش لإيجاد فهم مشترك للتعامل مع البيئة الاجتماعية. فالفرد في البيئة الاجتماعية يمضي يومه متحدثاً،أو مستمعاً، أو قارئاً... أو منتجاً ومستورداً للرموز فهو بهذا الفعل محاصر في كل مكان أو زمان بنشاط اتصالي ما.

وبناءً على تلك المعطيات تتنوع طرق وأساليب الاتصال بين قوافل الحج وفقاً لظروف الجماعة، والتوزيع السكاني، وبنائها الاجتماعي، وعلى المستوى الحضاري والاقتصادي، هذا فضلاً عما تكتنف هذه العملية من مقاصد وأغراض تهدف في النهاية إلى بناء قاعدة من القواسم الاتصالية المشتركة، وتتراوح هذه الطرق والأساليب من الإشارات الغامضة غير المحددة إلى القواعد المقننة، ومن الكتابة التصويرية البدائية إلى فن الاختزال الدقيق. وعلى ذات النسق يوجد تباين في مجالات الاستخدام اللفظي والقدرة الكلامية والإقناعية في العملية الاتصالية باعتبارها عملية تفاعل اجتماعي يستخدمها الناس لبناء معانٍ تشكل في عقولهم صوراً ذهنية، وبمقتضاها يتم تبادل المعلومات والآراء والأفكار.

فالعمليات الاتصالية هي عبارة عن نشاط مستمر لا يتوقف عند نقطة أو حالة أو واقع معين، إنّما تعتمد على مجمل العوامل الشخصية والثقافية والبيئية والتي بدورها توحّد الشخص مع الظرف أو الموقف تحت تسمية الموقف الاتصالي، إذ إن انتقال المعلومات بين الأفراد سواء المقيمين او الوافدين من الحجيج يشكلون عنصراً من عناصر التواصل، فهم مستقبلون ومرسلون يحملون سلسلة من الخبرات والانطباعات في التعامل والتعايش، وبذلك فإنَّ عملية التواصل والاتصال لا تحدث من فراغ إنما نتيجة لتراكم المعارف والعلاقات الأزلية الممتدة، ومن خلال هذا النشاط تنمو وتتطور وتتغير المفاهيم والسلوك نحو المثيرات والمواقف تبعاً للسياقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبفضل ذلك النشاط الاتصالي تتداول الخلفيات والذكريات، في شكل تجارب وصور ذهنية واتجاهات ...الخ. ومن هنا نجد أن التفاعل والتواصل بين الحجيج يشكل نوعاً من أنواع الاحتكاك والمبادلة. وبما إن الاتصال هو عملية اشتراك

واندماج مقصودة بين الأفراد والجماعات فإنه بذلك يرتبط عضوياً بمرجعياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية بناء على النسق الثقافي والايكولوجي.

فاعلية رحلات الحجيج في بناء علاقات التواصل والاتصال

الحج ركن الإسلام المجمع عليه، وهو من أقدم العبادات التي عرفَتْها الإنسانيَّة منذ أن دعا إليه أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأقام له أوَّل بيت وضع للنَّاس على أساس التَّوحيد لله سبحانه وتعالى، فالحجّ في الإسلام له أهميته ورمزيته باعتباره فريضة من الفرائض. حيث إنهم يقصون من أقاصي الدنيا البلاد المقدسة في كلّ عام لحجّ بيت الله الحرام، وزيارة مسجد سيّد الأنام عليْه الصَّلاة والسَّلام رغم المحن والمصائب، وهُم تحت ظِلال القوافل البدائيَّة الضَّعيفة، وعلى ظهور الإبل والحمير، ومشياً على الأقدام يتنافسون في أداء هذه الشَّعيرة؛ حبّاً في مضاعفة الثواب والأجر على ما يقومون به من هذه العبادة منذ القِدَم، فمنهم مَن كان يريد الحجَّ ويَنْشَطُ إليه رغبةً في طلب العلم على يدي عالم مشهور انتشر صِيتُه في كلِّ مكان، وجرى ذكره على كلِّ لسان، وسمع بقدومه الحجَّ في سنة من السِّنين(محمود،١٩٨٥م:٣٣٢). وهذه الرَّغبة كانت متوافّرة منذ القدم وعبر السنين، ولاسيَّما عند طلاب العلم النجباء الَّذين تعوَّدوا الأسفار حبًّا لسماع وتحصيل معارفهم، فهؤلاء كانوا كُثر قدروا العلم في أهله حقَّ قدره، فأحبّوه، وأحبّوا سماعه على أئمَّتهم المشهورين بنبوغهم، وعلوّ قدرهم، وكثرة معارفهم، لدقَّة علومهم تدريساً وتحديثاً وتصنيفاً(الأهواني،١٩٨٠م:١٦٥). فإقليم دارفور ليس بعيداً عن تلك السمات والخصال، وقد دلّ على ذلك حرص العلماء بتعليم بعضَهم البعض حتى إذا فقد أحد كتاباً، ولم يستَطِع الوصول إليه ينتظر موسم الحج للحصول عليه(البيتوني،١٣٢٦هـ:٢٣). ولعلَّ هذه الإشارة الخاطفة تدل على أهمّيَّة منافع الحجّ ودوره في تفاعُل الحركة العلميَّة من خلال روَّادها الَّذين أفنوا جلّ وقتهم في تقديم مسيرة العلم والعلماء.

ولعلَّ مشروعيَّة الحجّ التي انطلقت من فرضيَّة أدائه على مَن توافَّرت فيه شروطه إلى وجوب الاستِفادة من منافعه الكثيرة التي تحقّق ما تهفو إليه نفس المؤمن في دنياه، كانت دليلا كافياً أن يكون هنالك تواصل واتصال لقوله تعالى:﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ ﴾[الحج: ٢٨]. ومَن يتدبَّر أوامر الله تعالى في هذه الأيَّام يلمح من أوَّل وهلة أنَّها للوجوب. وقد تتعدد منافع المسلمين جَميع مناحي الحياة الدينيَّة والدنيويَّة السياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، ومن ثِمار هذه المنافع أنه منتدى عامّ يجمع جموع المسلمين من كلّ حدب وصوب، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وقد كان هؤلاء يجتمعون على رباطِ الدّين والوحدة، ونبذ الفرقة وراء ظهورهم، وإحلال المودَّة والرَّحمة والعطف بين صفوفهم، وتحويلُ سلبيَّات أفكارهم إلى إيجابيات، وعلى ضوئها نمت الحركة العلميَّة وازدهرت (بكر،١٤٠٦م:٢٧). ومن ثمار هذه العملية أيضاً، إنشاء حلقات علميَّة ومناظرات بين علماء أفْذاذ مشهودٍ لهم في عصرهم من أقرانِهم، وعلى الرغم من كثرة النقاش وطوله وشدَّة احتِدامه كانوا يخرجون منها على وفاق، اعتصاماً بحبل الله المتين وسنَّة نبيِّه الكريم.

وعلى ذلك نستطيع القول إن هذه الرحلة الشاقة بين مجاهل الإقليم قد فاقت كلَّ ما يدور بخلد الإنسان من نهضة في العلوم والمعارف فالتقى فيها علماء التَّفسير والحديث، والفقه، والنحو والأدب، وقد ضمن في جنباتها فيض من التجار الَّذين ألفوا الأسفار بقصد العلم وتحصليه، والمال وتوفيره. علماً بأن الذين يقومون بأمر الدَّعوة الإسلاميَّة في ربوع الإقليم كانوا تجَّاراً. فالتّجار يتبادلون معهم التجارة بيعاً وشراءً، والعلماء ينهلون من مشاربهم سماعاً عنهم، وقراءة عليهم، هذا وزيادة على مساهمتهم مع غيرهم في الوعْظ والإرشاد لِمَن جهل أحكام هذه الشَّعيرة من الحجَّاج، ومن خلال ذلك يتأكَّد لنا أنَّ دروب الحاجّ على الرَّغم من قسوتِها وامتدادها، وقسوة الأعْراب المحيطين بها، وعلى منازلها إلاَّ أنَّها كانت بمثابة جامعةٍ طرَق أبوابَها العلماء والطلاب، التقوا في رحابها. فأسهمت في تعْمِيق الثَّقافات(ابن فهد،١٤٠٤هـ:١١).

أيضاً لم تؤثر الكوارث الطبيعية التي تحدث بين حين وآخر في تواصل حجَّاج المسلمين فهم يتنقلون بين تلك الدروب، فسرعان ما ينسى الحاجُّ أهوال ما وجد من صعاب، إذا ما تذكَّر تلك الصعاب، امتثالاً لقوله تعالى:﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[الحج: ٢٧]. كذلك لم ينقطع تواصل الحجاج مع بعضهم البعض؛ فكانت القلوب تهوي إلى هذه البقعة الطاهرة، فالحج مدرسة نتعلم منها معاني الإخوة والمحبة والإيثار والوحدة بين الشعوب الإسلامية، وفي نفس الوقت يتبادل المسلمون الأخبار فيما بينهم من شتى أرجاء العالم، فالحج مدرسة للصبر وتحمل المشاق في طاعة الله تعالى فليس مكاناً للزحام والتدافع والتلاسن والتدابر ورفع الشعارات التي تفرق الأمة(الماوردي،١٩٦٨م:١٦٧). لذلك جاء مبدأ لا جدال في الحج لترسيخ المعاني السامية في قلوب مريديه حتى يتهيأ العبد لأداء هذه الشعيرة، ومن أهمها: الصبر والحلم والكرم، لقوله تعالى:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }(البقرة:١٩٧)، فالحج هو اختبار حقيقي لمدى التزام المرء بالأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة؛ فالذي يجب أن يلتزم به الحاج: أن لا يصدر منه إلاَّ خير، وأن يصبر على أذى الناس، وأن يتحملهم، وأن يبادر لإسعاد الآخرين. فالحج مدرسة اليسر وليس العسر، ومدرسة التخفيف عن الأمة، وليس التشدد والتنطع؛ كما هو مدرسة المساواة بين الناس فالكل أمام المولى عزّ وجلّ سواء لا فرق بين غني وفقير وبين حاكم ومحكوم وبين مدير وعامل يطوفون معا ويبيتون معا ويرمون معا ويبتهلون إلى الله معاً في أيام معدودات ومعلومات.

فالرحلة إلى الحج تشكل نوعاً من أنواع الترابط والتواصل والتقارب الحضاري بين الشعوب فمن خلالها يلتقي الرحالة بأهل البلد، ويقيم عندهم، ويصف أحوالهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، وفي كثير من الأحيان يبقى الراحل بالبلد التي يحل بها، ويشترك معهم في معيشتهم مثلما فعل الرحالة أبن بطوطة(٧٠٣-٧٧٩هـ -١٣٠٣-١٣٧٧م)، عندما مرّ بمجاهل إفريقيا(ابن بطوطة١٣٢٥هـ، .٢٠). لذلك تلعب رحلات الحج دوراً مهماً في التواصل بين الشعوب فهي الوسيلة لنقل العلوم والعادات والمعارف، وأخبار الدول. كما يعتبر أيضاً وسيلة من وسائل نقل الخبرات وثقافة الشعوب إلى غيرهم، فالرحلة علم وفن في حد ذاتها يقول أبن منظور(بدون تاريخ،٢٧٩) "رحل الرجل إذا سار... ورجل رحالً، أي عالم

بذلك". فرحلة الحجاج مرتبطة بالترحال والاستكشاف والملاحظة وحب الاطلاع والمسير والضرب في الأرض، وكثيراً ما يصف الرحالة ما يجري له في رحلته، ومن صفات العرب عن غيرهم من شعوب الأرض كثرة الترحال في الأرض ربما لإرتباطهم وعيشهم في الصحراء. فالشعب الدارفوري عرف بكرم الغرباء والمسافرين خاصة إذا كانوا من حجاج بيت الله الحرام، وقد حفلت كتب الرحلات بكثير من القصص عن كرم ونبل إنسان دارفور في استضافة الحجاج العابرين لديارهم، لأنّ معظم العابرين هم في غالبيتهم من العلماء والفقهاء الذين دونوا ما شاهدوه عن إفريقيا، فكانت قلوبهم متعلقة بتلك الأماكن، ومن أشهر الرحالة ابن طوير الجنة الذي سمى رحلته باسم (رحلة المنى والمنة) مما يدل على تعلقه وحبه لبيت الله الحرام، والمنى هو أقصى ما يتمناه الإنسان، ويأمل الحصول عليه وإليه(الجنة،٢٠١٣م:١٨٠). ويعتبر القرن السادس عشر أزهي عصور رحلات الحجيج إلى الأراضي المقدسة حيث اهتمت السلطنة بثقافة الحج، وقد كان القائمون عليها يمثلون درجة عالية من الوعي المعرفي. عموماً كانت قوافل الحجيج تمرّ بالسودان عن طريق درب الأربعين، أو عن طريق شمال إفريقيا(مصر) أو باب المندب في شرق إفريقيا. ونتيجة لتلك الجهود المضنية أقامت بعض القوافل مأوى لهم في بعض المناطق مثل كوبي والفاشر وغيرها، كما قاموا ببعض الأعمال الجليلة كتطبيق الشريعة الإسلامية، وبناء المساجد، وتطوير مفهوم السلطة من النظام التقليدي إلى النظام الإسلامي، وبالتواصل تنقّل العلماء بين مختلف الامصار فانتشرت الطرق الصوفية في بعض أنحاء دارفور(الدقير،بدون تاريخ:٣٧).

وبحلول القرن الثامن عشر قويت شوكة التواصل والاتصال بين علماء السودان الغربي والأزهر الشريف وتركيا والأندلس، ومما زاد من أهمية التواصل والاتصال اهتمام شريف مكة بعلماء وزعماء القارة السمراء حيث قدم لهم الهدايا والقلائد أحياناً(عيسى،١٩٧٧م:٧٤). لذلك كانت المدن التي تقع على طرق قوافل الحج من أكثر المدن انتعاشاً في التجارة عن غيرها. وقد أدى التدفق السكاني إلى ازدهار الحركة الاقتصادية والثقافية والفكرية، بل صارت تلك المناطق مراكز لاشعاع العلوم الإسلامية. هكذا كان لرحلات العلماء من الطرق الصوفية الذين يتجولون في مراكز إشعاع المعرفة دور كبير في انبعاث الحركة العلمية بين سودان وادي النيل ورصفائهم في بلاد السودان الوسطى، وقد كان للمذهب المالكي والشافعي دورهما الفعّال في التواصل والاتصال بين بلاد المغرب والساحل الإفريقي الغربي، وغرب السودان.

دور التواصل والاتصال في نشر الدعوة الاسلامية:

بعد أن تتبَّعنا الحركة العلمية، وعلاقتها بجموع الحجاج، ومعايشتها لهم في مناطق تجمعهم، أو على طريق مسيرتهم، نستطيع أيضاَ أن نتتبَّع دورهم في نشر الدعوة الإسلامية أيام المواسم التي بلغت أوْج ازدهارها على يد علماء مشهورين أفنوا جل أوقاتهم في مسيرة الدعوة الإسلامية، وليس أدلّ على ذلك من تكرار مرورهم بالأماكن الآهلة بالسكان؛ فكثرة ترددهم بعد الفريضة إنما كانت بقصد العلم، وهو فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقد يحمل كلّ منهما في طياته أبلغ بيان على تصوير فضله، وحامل مشاعل نوره في نشره، وفي توجيه المسلمين لدراسته، ورفع منار الإنسانية في كل مكان، والدعوة إلى العمل

والعرفان، فهؤلاء العلماء إنَّما أرادوا الحج، وقصدوا العلم أيضاً، وبذلك قد جمعوا بين الحسنيين في هذا المقام الروحاني. وقد قصدوا في ذلك تحقيق الأهداف التالية:

- نشر الوعي الإسلامي في المجتمع الدارفوري.
- التصدي للعادات والتقاليد التي لا تمت الإسلام بصلة.
- إقامة المناظرات الدينية بين الأئمة.
- معرفة أهمية ودور القضاة وفعاليتها في حياة الإنسان.
- اتِّباع الأحْكام الشرعية في ممارسة الحياة، والتَّأمين على أدعيته.
- تعليم الصَّلوات والخطب، والوعظ والإرشاد.

وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على نشر الدعوة الإسلامية منها:

١. جاذبية العقيدة الإسلامية التي تستهوي الأرواح نحو الإسلام ووحدته وتجانسه وتناسقه.

٢. قابيلية البنية الاجتماعية للفكر الإسلامي: إن الإسلام يهيئ للفرد المسلم نوعاً من الانفتاح على العالم، حيث يكفل له استعداداً فكرياً، كما يوفر له عوامل تساعد على الرقي الاجتماعي، ويدفعه إلى التطلع إلى حياة أفضل، ويخرجه من وضع اجتماعي وثقافي واقتصادي تقليدي إلى وضع أعلى وأرقى. فالتاجر المسلم كان يمثل مركز الإشعاع الاجتماعيّ بفضل ثروته المعرفية والعلمية (مونتاني،١٩٨٣م:١٢). فالمجتمع الإسلامي مهما كانت بساطته يتكون من مؤسسات دينية كالمساجد والمدارس والخلاوي وغيرها.

٣. سهولة وبساطة التعاليم الإسلامية: إن سهولة وبساطة الإسلام ساهمت في انتشاره بسرعة. وقد شهد بذلك بعض النصارى والمستشرقين، فها هو الكاتب الفرنسي(ديشان) حاكم المستعمرات الفرنسية بأفريقيا الغربية عام ١٩٥٠م يقول:" إن انتشار الإسلام في أغلب الظروف لم يقم على العسر، وإنما على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بربهم..."(الزيادي،١٩٩٩م:١٣٦).

٤. إقامة الصلوات الجماعية: إنَّ للصلاة جاذبية كبيرة خصوصاً حين تؤدي في جماعة، حيث يؤم الإمام الجماعة، ويرتل آيات من الذكر الحكيم، وعندما يقوم بحركة يتبعه المأمومون بحركات منسقة ومنظمة تولد نوعاً من التواصل والاتصال.

٥. دور التّجار المتنقلين: لا يقل دور التجار في هذا المجال عن غيرهم؛ فهؤلاء وإن لم يكونوا دعاة متخصصين فهم دعاة عند عرض بضائعهم. هكذا كان لتّجار المسلمين المتنقلين دورٌ كبيرٌ في القيام بأمر التبليغ بالدعوة الإسلامية في المناطق النائية. وتقوم دعوتهم على الحكمة والموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالمجادلة بالتي هي أحسن.

٦. تواضع العلماء في نشر الإسلام: العلماء هم ورثة الأنبياء، وبالتالي فإن التاريخ إذا حكى عن هذا إنما يريد في ذلك أن يؤكد الحقيقة الأزلية التي لا تندمل بتقادم الزمان واختلاف المكان، فهم في حلهم وترحالهم يمثلون سفراء متطوعين يحملون ثقة المجتمع.

معوقات التواصل والاتصال:

كان الحجاج يتجمعون لأداء فريضة الحج لهدفين أساسين هما: أداء فريضة الحج أولاً، وثانياً التعارف والتواصل مع العلماء الذين يفدون لأداء هذه الشعيرة إما للمعرفة العلمية، أو لتعليم المعارف والزود بها إلى أهلهم حين العودة. ورغم تلك الجهود إلا أنهم يواجهون الكثير من المعوقات ففي كثير من الأحيان نجد أن المسالك والطرق غير آمنة بسبب تفشي ظاهرة اللصوص وقطاع الطرق، وانتشار الأوبئة والأمراض المعدية، والتي كثيراً ما أدي ذلك إلى موت المئات والآلاف من السكان، هذا بالإضافة إلى التدهور الاقتصادي الذي لازم دارفور في تلك العهود الماضية، وسياسة العزلة التي انتهجها المستعمر في ترسيم الحدود السياسية التي ما فتئت تشكل عقبة في التواصل بين الشعوب على المستوى الفردي والجماعي، وتأثيره الحركة الاستشراقية على الدراسات الإسلامية في العالم أجمع. أيضاً كان لاختلاف اللغة والعادات والتقاليد تأثيرها على مسيرة قوافل الحجيج. كل هذه العوامل أثرت في نقل الأخبار بين الحجيج من حين لآخر على الرغم من الحراسات المشددة التي تفرضها القوافل.

التواصل والاتصال وأثره في بناء الشخصية الدارفورية

إنّ العلاقة بين قوافل الحجيج في دارفور موغلة منذ القدم، وقد يصعب أحياناً تحديد مسارها تاريخياً، حيث تعود زمان تلك العلاقة إلى هجرة العرب المسلمين في فترات تاريخية طويلة. وعندما أصبح الإسلام يشكل دين الأغلبية لبساطة تعاليمه في أجزاء واسعة من المدن والقرى والبوادي، دفع بعض الحجيج إلى الاستقرار حول المراكز الحضارية فتزاوجوا من السكان المحليين، وأصبحوا يشكلون جزء من النسيج الاجتماعي حيث يمارسون حياتهم بشكل طبيعي إمّا دعاةً أو تجاراً يتوغلون في أقاصي أقاليم السودان المختلفة ببضائعهم، فأقاموا شبكة من التواصل والاتصال. وبالتالي تشكلت ملامح الشخصية الدارفورية مازجت بين العربية والإفريقية ذات الطابع الإسلامي في سماتها وصفاتها وخصائصها، فأصبح السلوك العام ينضوي تحت مرامي وأهداف الثقافة الإسلامية مع الاحتفاظ ببعض العادات والتقاليد المحلية. هذا إلى جانب خلق رابطة روحية قوية تجاوزت الحدود السياسية والانتماءات الإثنية الضيقة، ومن هنا يمكن القول إن الشخصية الدارفورية استطاعت أن تحافظ على كينونتها الأفروآسيوية في كل مراحل النمو الاجتماعي حتى أصبحت ثقافة التعايش والتسامح السمة الغالبة لكثير من المجتمعات الدارفورية.

خاتمة:

أكدت الدراسة أنَّ التواصل والاتصال بين قوافل الحجيج في إقليم دارفور هو بمثابة المحرك المعرفي والمعلوماتي بالنسبة لإنسان القارة السمراء، وبحكم التطور المتسارع في مجالات العلم والمعرفة أصبح التواصل جزء من العملية الديناميكية في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والإجتماعية والثقافية والفكرية، والتي بدورها أصبح محوراً للتربية الرشيدة حيث كان إنشاء الخلاوي والمعاهد والمدارس، وبناء المساجد هي السمة الغالبة، وبفضل ذلك أصبحت طرق الحج مزدهرة بالعلوم الشرعية والمعرفية. حيث تمكن العلماء أن يسهموا في تغيير الحياة العامة في الإقليم، وبالتالي سعوا في رفع الحصيلة المعرفية للمتعلمين، والأخذ بتقنيات التواصل المعرفي سواء اللفظي اللساني وغير اللفظي (اللغة).

فعلاقة التواصل والاتصال بين الحجيج يشكلان جزء أساسياً من نظام الإسلام، لأن الإسلام في حقيقته يقوم على التنظيم والترتيب لبناء العلاقة بين الإنسان وربه، وبينه وبين الآخرين، فهؤلاء يشكلون جوهر العملية التواصلية رغم التحديات التي تعترضهم في الحل والترحال. وعلى ما ذكر وصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- يشكل طرق الحج في دارفور من أهم المقومات الحضارية والثقافية، والتي ما فتئت أن شكلت الوجدان الدارفوري من خلال بناء علاقات التعايش والتسامح.
- إبراز الأهمية التاريخية لطرق الحج في نشر الدعوة الإسلامية.
- اتصال دارفور بالعالم الخارجي.
- التواصل والاتصال ساعد في تقوية روابط التعاون بين الشعب السوداني.
- الإلمام بمجاهل الإقليم التي لم تكن معروفة في السابق.
- كسر حاجز الخوف والرعب الذي ينتاب المهاجرين والمسافرين.
- بناء علاقات المصاهرة(التزاوج)، والاهتمام بالأنساب.

التوصيات

- تفعيل دور التواصل والاتصال للمحافظة على ميزان الدعوة الإسلامية، وبناء العلاقات الدولية.
- استغلال الوسائط الإعلامية الحديثة في التواصل والاتصال للخروج من الهيمنة الثقافية والفكرية التي تواجه الحجيج.
- تعزيز أواصر التواصل والاتصال، وتبادل الزيارات والمنح والتدريب.
- ترسيخ معاني الاتصال الثقافي لتنمية مضامين القيم الأخلاقية والروحية المشتركة بين الشعوب.
- ضرورة التخلص من مخاطر الاستلاب العقلي والفكري الغربي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

* ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة(١٣٢٥هـ). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، ١٩٩٧م.طرابلس،ط٢.
* ابن خلدون،عبدالرحمن بن محمد(بدون تاريخ). المقدمة.مطبعة دار الجيل،بيروت،ط٢.
* ابن فهد،عزّ الدين عبدالعزيز(١٤٠٤هـ).غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام. تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة،ط٢ج١.
* ابن منظور(١٣٠٠هـ).لسان العرب. دار الجيل،بيروت،ط٢،ص١٣٤.
* ابن منظور(بدون تاريخ). لسان العرب. دار صادر، بيروت . لبنان،ط٢.
* أبوالعلا،محمود(١٩٦٨م). جغرافية العالم الإسلامي. دار المعارف،القاهرة،ط١.
* أرباب، أحمد عبد القادر(١٩٩٨م). تاريخ دارفور عبر العصور، مطبعة جامعة الخرطوم،ط١.
* الأهواني، أحمد(١٩٨٠م). التَّربية في الإسلام. دار المعارف، القاهرة،ط١.
* البتنوني، محمد لبيب(١٣٢٦هـ). الرحلة الحجازية. مطبعة الجماليَّة، القاهرة، ط٢.
* التونسى، محمد بن عمر(٢٠٠١م). رحلة إلى وادي. تحقيق ودارسة عبد الباقي محمد. شركة مناكب للنشر،ط١.
* الجاز،هاشم(٢٠٠٠م). الاعلام السوداني.مطبعة جامعة القرآن الكريم،أمدرمان،ط١.
* الجنة،ابن طوير(٢٠١٣م). رحلة المنى والمنة، تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢.
* الدقير،كمال(بدون تاريخ). دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان.
* الزبيدي،مرتضى(١٣٨٥هـ). تاج العروس من جوهر القاموس. تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت،ط٢.
* الزيادي، محمد فتح(١٩٩٠م). انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه. دار قتيبة،بيروت،ط١.
* الشنقيطي،سيد محمد(١٩٩٤م). نحو تأصيل الدراسات الاتصالية.دار القرآن الكريم للنشر والتوزيع،الرياض،ط١.
* الصواف،محمد محمود(١٩٧٥م). رحلاتي إلى ديار الإسلامية.دار القرآن الكريم،بيروت،ط١.
* الغنيمي،عبدالفتاح مقلد(١٩٨٥م). حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا. مكتبة النهضة، القاهرة،ط١.
* الماوردي، أبو الحسن عليّ بن محمَّد بن حبيب البصري(١٩٧٨م). الأحكام السلطانية والولايات الدينيَّة،تحقيق، محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة،ط٢.
* إمام،إبراهيم(١٩٦٤م). أصول الإعلام الإسلامي.دار الفكر العربي،القاهرة،ط١.
* أوفاهى(٢٠٠٠م). الدولة والمجتمع في دارفور ترجمة عبد الحفيظ سليمان عمر،الخرطوم،ط٢.
* بكر، سيّد(١٤٠٢هـ).الملامح الجغرافيَّة لدروب الحجيج. دار تهامة للنشر، جدة.
* حسن، يوسف فضل(٢٠٠٣م). مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقى، دار جامعة الخرطوم للنشر،ط١.
* حسن،إبراهيم حسن(١٩٦٤م). التاريخ الإسلامي. دار العلم،بيروت،ط٢.
* رشتي،جيهان(١٩٩٧م). الأسس العلمية لنظريات الإعلام.دار الفكر العربي،القاهرة،ط٢.
* عبد الكريم،لاكان(٢٠٠١م). مقدمة في وسائل الاتصال.مكتبة دار زهران،جدة،ط١.
* عثمان، عبد الجبار عثمان(٢٠٠٦م). تاريخ الزغاوة في السودان وتشاد،القاهرة المصرية الدولية للدعاية والتوريد،ط١.
* عيسى،محمود خيري(١٩٧٧م). العلاقات العربية الإسلامية. دار الطباعة الحديثة، القاهرة،ط١.
* فضل،يوسف(١٩٧٩م). انتشار الإسلام في إفريقيا.الخرطوم،ط١.
* قمر الدين، محمد موسى محمود(٢٠٠٥م). صفحات في تاريخ دارفور، الخرطوم،ط١.
* محمد نصر،حسني(٢٠٠٠م). مقدمة في الاتصال الجماهيري.مكتبة الفلاح،الإمارات.ط١.
* محمود،حسن(١٩٨٥م). الثقافة الإسلامية والإسلام في إفريقيا.مكتبة دار النهضة،القاهرة،ط١.
* مونتاني،فنسان(١٩٨٣م). الإسلام في إفريقيا السوداء.ترجمة إلياس حنا،دار أبعاد،بيروت،ط٢.
* وسترمان(١٩٥٨م). دائرة المعارف الإسلامية.دار المعارف،بيروت،ط٢ج٢.